

٩

الحجاجُ والأميرُ

خليل محمود الصمادي

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصمادي، خليل محمود

الحجاج والأمير.- الرياض.

١٦ ص، ١٧X ٢٢ سم - (سلسلة قصص من التراث)

ردمك: ٣ - ٩٩٠ - ٢٠ - ٩٩٦٠

١- القصص القصيرة العربية - السعودية

أ - العنوان ب - السلسلة

ديوي ٨١٣,٠١٩٥٣١ ٢٢/١٥٤٨

ردمك: ٣- ٩٩٠ - ٢٠ - ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٢٢/١٥٤٨

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م

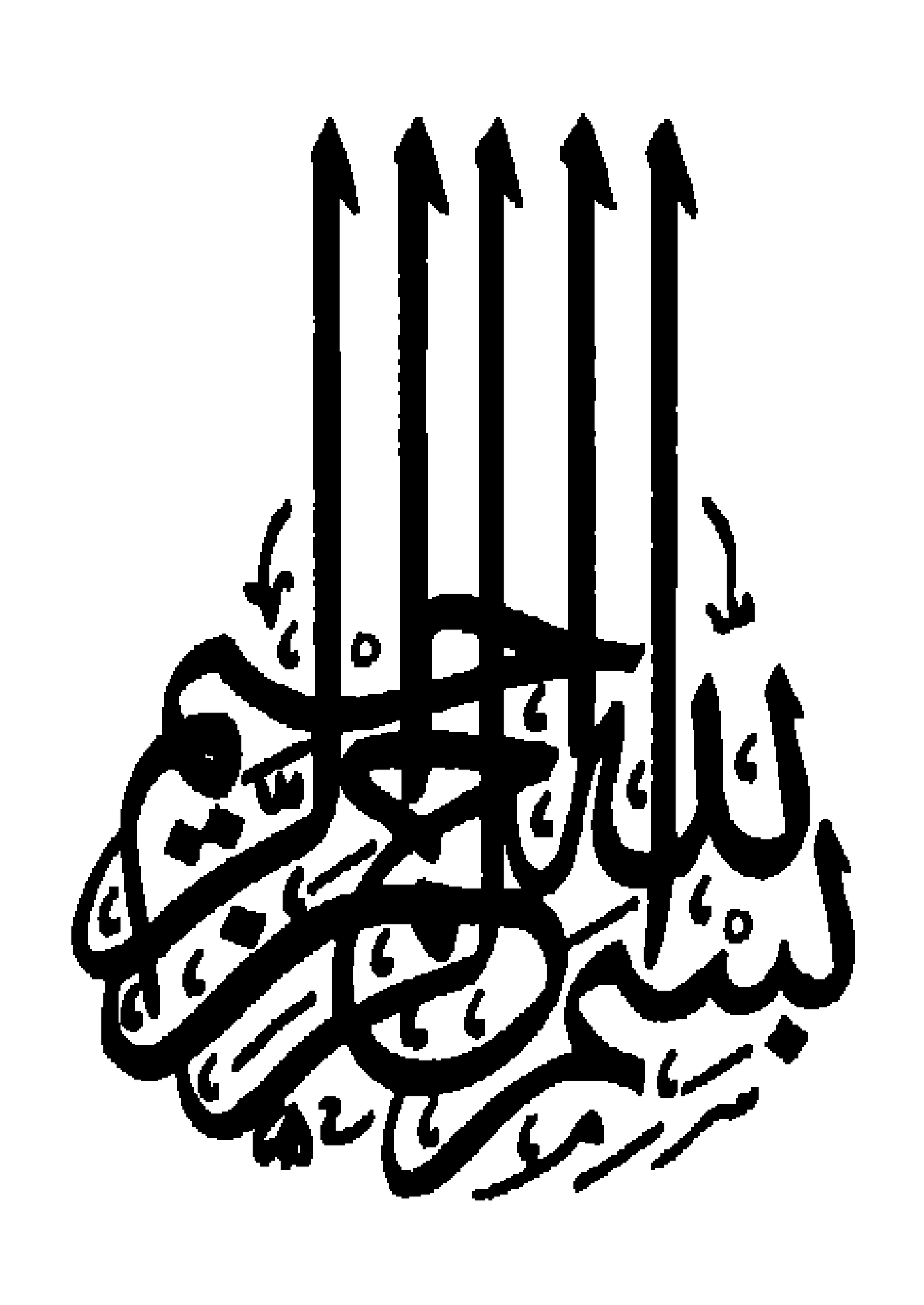
الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩


بسم الله الرحمن الرحيم

اشتهرَ يزيدُ بنُ المهلبِ بن أبي صفرةَ بالشجاعةِ والكرمِ، فقدْ وَرِثَ هاتينِ الصفتينِ عن أبيهِ المهلبِ الذي كانَ الساعدَ الأيمنَ للحجاجِ بن يوسفِ الثقفيِّ في العراقِ، ومنْ شدة إعجابِ الحجاجِ بالمهلبِ فقدْ تزوجَ ابنته هنداً وعيَّنهُ أميرًا على خراسانَ.

ولما ماتَ الملهبُ بنُ أبي صفرةَ، لم يكن أحدٌ أحقَّ بالإمارةَ منْ يزيدَ، فقدْ كانَ أهلاً لها بشهادةِ كلٌ مَنْ عرفهُ في زمنهِ، فقدْ كانَ شُجاعًا وكريمًا بلْ جوادًا سمحًا جريئًا لا يخشى في اللهِ لومةَ لائمٍ.

أمَّرَ الحجاجُ يزيدَ على خراسانَ، ففرحَ الناسُ هناكَ، وصاروا يقصدونَ دارَ الإمارةِ لسماعِ حديثهِ العذبِ، ويجلسونَ على موائدهِ التي كانتْ تعمرُ بألذٌ أنواعِ الطعامِ، والفاكهةِ، فقدْ كانَ يساعدُ المحتاجينَ بمالٍ وفيرٍ، وأعمالٍ تليقُ ببعضهم لتساعدهمْ على شظفِ العيشِ.

زارهُ صديقُهُ عقيلٌ منَ العراقِ فقالَ: رحبَ بي وأدناني من مجلسهِ وفي إحدى الليالي كنتُ أسمرُ معهُ وحولَهُ عددٌ من الرجالِ فأخذوا يتحدثونَ عن النساءِ والأولادِ ونعمةِ الزواجِ.

وأنا لمْ أتكلمْ فالتفتَ إليَّ يزيدُ وقالَ: إيهِ يا عقيلُ ألا تشاركنا الحديث؟ فقلتُ:

أَفاضَ[1] القومُ في ذكرِ الجواري[2]   فأمَّا الأعزبونَ فلنْ يقولُوا

فقالَ يزيدُ: إنكَ لَنْ تبقى عزبًا بعد هذا اليوم إن شاء الله.، فلمَّا رجعتُ إلى منزلي إذا أنا بخادمٍ قدْ أتاني ومعه جاريةٌ وقال: يقول الأميرُ انظر إليها فإن أعجبتَك فتزوجها وكان قد أحضر معه فرشٌ وأثاثٌ وصرةٌ بها مبلغٌ كبيرٌ من المال!

نظرتُ إلى الجاريةِ فأعجبتني فتزوجتها، وفتحت صرةَ المالِ فإذا فيها عشرةُ آلافِ درهمٍ ونظرتُ إلى الأثاث فإذا هُوَ فرشٌ وبسطٌ وأوانٍ وكلٌّ ما يلزمُ البيتَ، وجاءَ الخادُ في الليلةِ الثانيةِ وأعطاني صرةً فيها عشرةُ آلافِ درهمٍ فمكثتُ عشرَ ليالٍ وأنا على هذهِ الحالةِ، فلما رأيتُ ذلكَ استكثرتُهُ فدخلتُ على يزيد فقلتَ لهُ: أيُّها الأميرُ، واللهِ قَدْ أغنيتَ ووفيتَ وزدتَ لي كثيراً وأنا لا أستحقٌّ ذلكَ، فإنْ رأيتَ أنْ تأذنَ لي في الرجوعِ لأصحابي وأقاربي.

فقالَ: إنما أخيِّركَ بين شيئينِ إما أن تقيمَ فنوليكَ ولايةً تليقُ بك، أو ترحلَ فنغنيكَ فقلتُ: أو لمْ تغنني أيُّها الأميرُ.

قالَ: إنما هذا أثاثُ المنزلِ، لابدَّ للضيفِ منه، وهذهِ الجاريةِ حتى تقولَ

---

(١) أفاض: أكثر.

(٢) الجواري: النساء.

شيئًا في النساء، وهذا المالُ هديةُ الزواجِ.

ما أروع هذا السخاءَ، وما أجمل هذا الوفاءَ الذي لا مثيلَ لهُ!!

وهاكمُ قصةٌ أخرى من كَرَمِ يزيد..

حجَّ ذاتَ عامٍ وبعدَ أنْ نحرَ الإبلِ والبقر والغنمَ أراد أن يفكَّ إحرامَهَ فطلبَ حلاقًا ليحلقَ رأسَهُ، فجاءَ الحلاقُ مسرعًا لما علم أنَّه أميرٌ وظنَّ أنهُ سيأخذُ أجرًا يزيدُ عن درهمٍ أو درهمينِ قليلاً، لقد تمنى أن يحصلَ على عشرةِ دراهمٍ وهذا أكثر ما كان يأملُهُ من هذا الأمير ولما انتهي الحلاق من عمله صاحَ يزيدُ بغلامِه قائلاً: يا غلامُ أعطِه ألفَ درهمٍ..

صاحَ الحلاقُ: ألف درهم!! ألف درهم! هلْ أنا في حُلمٍ أمْ في علمٍ!! لقدَ دُهِشَ كثيرًا ولم يصدقْ ما جرى حولَه، وبعد أن رأى المال في يديه قال: سأمضي إلى أمِّي وأبشِّرها، ضحك يزيد وقال: أعطوه ألفًا أخرى، فقال الحلاق: امرأتي طالق إن حلقت رأسَ أحدٍ بعدكَ أيها الأميرُ الكريمُ قال يزيدُ: أعطوهُ ألفين آخرين!!

ماهذا السخاءُ؟ ما هذا الجودُ الفياضُ؟ لقد طارتْ شهرتُهُ في الأفاقِ حتىَ قالَ بعضُ أصحابهِ: إن السفنَ لتجري في جودِهِ، ولكنَّ هذا الجودَ والسخاء قد جرَّ عليه الويل والدمار، فكيف كان ذلك؟

لقدَ علِمَ الحجاجُ بسخائه، وعَلم بحبٌ الناسِ لهُ، فساءهُ ذلك حسداً وغيرةً، وخشيَ أنْ يأخذَ مكانَهُ، فصار يسعَى بالدسائسِ للخليفةِ الوليد بن عبد الملكِ الذي أصبح خليفة بعد وفاة أبيه ويوغلُ صدرَهُ عليهِ، أخذ الحجاج يتحين الفرص للإيقاع به، وذاتَ يومٍ طلبَ منهُ مئةَ ألفِ دينارٍ وجبتْ من خراج إمارتهِ، ولمْ يكن يزيدُ قَدْ جَمعها بعد، ولم يكنْ معهُ ما يفي بها من ماله الخاص فالسخاء لم يبقِ معهُ شيئًا، فوجدها الحجاجُ فرصةً لحبسهِ، فطلبَهُ في الحالِ، ووضعهُ في السجنِ وقرَّر ألا يُفْرجَ عنهُ مالمْ يتدبرْ أمرَهُ..

وُضِعَ في السجنِ مكبلاً، وأمرَ الحجاجُ السجانينَ بضربهِ وإهانتهِ، فضربوهُ وأهانوهُ، ولما عرفوا فضلهُ خففوا الضربَ عنهُ، بل صاروا يحبونَهُ ويستمعون إلى حديثهِ الشيقِ، وأُعجِبَ بهِ السجانُ الذي كانَ يقومُ عليهِ، فأحبَّهُ حُبًّا عظيماً، وأصبح من أقرب الناسِ إليهِ، يجلب له الطعامَ والماء العذب، وكل ما يحتاجهُ فأرسلَ إلى أصدقائهِ أنْ يجمعوا لهُ مئةَ ألفٍ لافتدائهِ وسرعانَ ما جمعَ لهُ الأصدقاءُ المبلغَ فأرسلوه له.

تقدمَّ السجانُ منْ يزيدٍ وقالَ لهُ: خذْ هذا المبلغَ الذي حُبِسْتَ منْ أجلهِ لقدْ أرسلَهُ أصدقاؤكَ وأحبابُكَ.. لم يسرّ يزيدُ كثيراً مما فعلَ السَّجانُ فعاتبه ولامه ثمَّ قالَ لهُ: اتركِ المبلغَ معكَ.

وما أن خرج السجَّان من زنزانة يزيد حتى جاءَ الفرزدق الشاعرُ المشهورُ يزورهُ ثم قال للسجان: استأذنْ لي عليهِ، فقالَ السجَّان: إنَّهُ في مكانٍ لا يمكنُ الدخولُ عليهِ فيهِ.

حاول السجان منعه من الدخول، ولما أعيته الحيلةُ قال له الفرزدقُ: إنما أتيت متوجعًا لمافيهِ، ولم آتِ ممتدحًا.

فأذنَ لَهُ، فلما رآهُ الفرزدقُ قالَ:

أبا خالدٍ ضاقتْ خراسانُ بعدكمْ
وقالَ ذوو الحاجاتِ: أينَ يزيدُ
فما قَطَرتْ[1] بالشرقِ بعدكَ قطرةٌ
ولا اخضرَّ بالمرْوَيين بعْدَك عودُ
وما لسرورٍ بعد عزِّكَ بَهْجَةٌ
وما لجوادٍ بعد جُودِكَ جُودُ

فقالَ يزيدُ للسجانِ: ادفعْ إليهَ المئةِ ألفٍ التي جُمِعَتْ لنا ودعِ الحجاجَ يفعلُ بي ما يشاءُ.

قال السَّجانُ: ماذا تقول!! هذا الذي خفتُ منهُ لما منعتهُ الدخولَ

(١) قطرت: أمطرت.

عليكَ، أصرَّ يزيد على دفع المبلغِ للفرزدق، فدفعها السجان مكرهًا وهو ينظر إلى الفرزدق نظرة غضبٍ واستنكار.

ثمَّ دفعها إليهِ وانصرفَ مكث يزيدُ في السجنِ مدةً والسَّجانُ في دهشةٍ منْ أمرِ هذا الرجل لقد أتاهُ المالُ إلى السجنِ ليفدي به نفسَهُ وها هو يعطيهِ لشاعرٍ مدحه في أبياتٍ ثلاثةٍ!! وآثر أن يتحملَ العذابَ والهوانَ.

وذاتَ يومٍ صارَحَ يزيدُ سَّجانَه بأمرِ الفرارِ من السجنِ، فقالَ لَهَ: ما رأيكُ أنْ تسمحَ لي أن أهربَ منَ السجنِ.

فقال السجانُ، لوْ علمَ الحجاجُ لقطعَ رأسي، فإن كانَ لابدَّ من ذلك فَدَعْنِي أهربُ معكَ!!

جلسا معًا وأعدًّا خطةً للهروبِ، وذاتَ ليلةٍ في غسقِ الدجى، فرَّ يزيدُ وسجانُهُ متوجهينَ خارجَ الكوفةِ.

قالَ السجانُ: إلى أينَ ستذهبُ يا أبا خالدٍ.

- إلى الشامِ.

- إلى الشامِ حيثُ الوليدُ بن عبدِ الملكِ الذي أمر بسجنك!!

- نعمْ إلى هناكَ، وليقضي اللهُ أمرًا كانَ مفعولاً . . .

لم يصدق السجانُ أنَّ يزيدَ يريدُ الشامَ، ومن شدّةِ حبهِ لهُ سارَ مَعَهُ وأقسمَ ألاَّ يفارقَه، مهما آل إليه الحالُ.

ظلا سائرين يومًا بعدَ يومٍ في القفار والبوادي متوارين(١) عن جنود الحجاج، وليس معهما من الزاد إلا القليل، حتى كاد أن ينفد.

وذات يومٍ مرّا على أعرابٍ في باديةٍ، فوجدا عجوزاً أمامَ خيمتِها فقالَ لسجانِه، اذهبْ واستسقنا منها لبنًا، فأحضرت العجوزُ اللبن فشربا حتى ارتويا.. ثم ذبحت لهما عنزاً صغيرة وأكلا منها أكلاً لم يجدا مثل طعمه ولما شبعا حمدا الله وشكرا العجوز على حسن صنيعها ثم قال للسجانِ كم بقي معنا من المالِ. قال مئة دينار.

– ادفعها إليها.

– قدْ نحتاجُ إلى هذا المال في هذهِ المحنةِ، قال السجانُ: هذهِ يرضيها اليسيرُ وهيَ لا تعرفكَ.

– إن كانَ يرضيها اليسيرُ، فأنا لا أرضى إلا بالكثيرِ، وإنْ كانتْ لا تعرفني فأنَا أعرفُ نفسيِ.

(١) توارى عن الأنظار: اختفى.

دفعَ السجانُ للعجوزِ كل ما معهما من مالٍ، ففرحتِ العجوزُ كثيراً، وتابعَ الاثنانِ سيرَهما قاصدين دمشقَ..

ولما اقتربا من دمشق، ولاحت مآذنها، وغوطتها الخضراء حتى فرحَ يزيدُ، وحزنَ السجانُ الذي قالَ لهُ: ها قدْ وصلنا دمشقَ بلدَ بني أمية الذين سجنوكَ في الكوفةِ فماذا سيفعلونَ بنا هنا!!

قالَ يزيدُ: لا تخفْ يا صديقي، سنذهبُ حالاً إلى قصر سُليمانَ بن عبدِ الملكِ.

صاحَ السجانُ: سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ، أخو الخليفةِ، وولي عهد المسلمين!!

– نعم يا صديقي.

وصل الاثنان إلى قصرِ سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ، وهما في حالةٍ يرثى لها، فأكرمَهما وأحسنَ إليهما وأقاما عندَهُ، وسمع سليمانُ قصة يزيد، فأقسم له أن يجيرَهُ.

علمَ الحجاجُ من عيونه[1] أن يزيد وصل إلى دمشق وهو في قصر

(١) عيونه: جواسيسه.

سليمان بن عبد الملك. كتبَ الحجاجُ إلى الوليد يعلمهُ بذلك، وأنَّ الأمرَ للخليفة فيما يراهُ.

وصلتِ الرسالةُ إلى الوليد بن عبدالملك فقرأها، وسرعانَ ما كتبَ كتابًا لأخيهِ سليمان يطلبُ منه أن يسلِّمه يزيد بن المهلب.

وصل الكتاب إلى سليمان فقرأه ، واحتار فيما يفعله، هل يستجيبُ لأمر الخيفة ويغضب ضيفه أم يغضب الخليفة ويرفض أمره؟.

كتبَ سليمانُ كتابًا لأخيهِ يقولُ فيهِ: يا أميرَ المؤمنينَ إني ما أجرتُ يزيدَ ابن المهلبِ إلا لأنَّهُ هُوَ وأبوه وإخوتُهُ قدَّموا خدماتٍ عظيمةً لدولتنا، ففتوحاتهم معروفةٌ، وشجاعتهم معلومةٌ، وسخاؤهم وكرمهم تعلمهُ العربُ والعجمُ، ولم أُجرْ عدواً لأميرِ المؤمنينَ، وقد كانَ الحجاجُ حبسَهُ وعذَّبهُ وأغرمَهُ ظلماً، وقدْ صارَ إليَّ واستجارَ بي، فأجرتُهُ وأنا مستعدٌ لدفعِ أيِّ مبلغٍ عليهِ، فإنْ رأى أميرُ المؤمنينَ أنْ لا يخزيني في ضيفي فليفعلْ، فإنَّهُ أهلُ الفضلِ والكرمِ.

وصلَ الكتابُ إلى الوليدِ فقرأهُ، فاستشاط غضبًا وكتبَ إليه كتابًا آخرَ يقولُ فيهِ: إنَّهُ لا بدَّ أنْ ترسلَ إليَّ يزيدَ مغلولاً[1] مقيداً.

(١) الغُلُّ: طوق من حديد أو جلد يُجعل في عنق الأسير أو المجرم أو في أيديهما.

فتحَ سليمانُ الكتابَ وقرأهُ، وبدتْ عليهِ علاماتُ الحيرةِ والدهشةِ، ماذا يفعل؟ هل يطيعُ أميرَ المؤمنينِ ويسوقُ ضيفَهُ ويرسلُهُ إلى أمير المؤمنينَ، أمْ يتمردُ ويعصي أخاهُ ويجيرُ ضيفَهُ.

علِمُ يزيدُ بما في الكتابِ فأحضر حبلاً وقالَ لسليمان: أشكركَ على ضيافتي ولكنني أدعوكَ أن توثقني وترسلني إلى أميرِ المؤمنينَ، وباركَ اللهُ فيكَ فقد أجرتني ولا أطلبُ منكَ أكثرَ من ذلكَ.

أمسكَ سليمانُ بالحبلِ، وصاحَ في غلمانه، أحضروا إلي ابني أيوبَ!!

أسرَع الغلمانُ وأحضروا أيوبَ، أمسكهُ أبوهُ وقيدهُ ودعَا يزيد بنَ المهلبِ وقيدَّهُ، ثم شدَّ قيدَ هذا إلى هذا بسلسلةٍ، وغلَّهما جميعًا بغُلَّين، وأرسلهَما إلى أخيهِ الوليدِ، وكتبَ إليهِ: أمَّا بعدُ، يا أميرَ المؤمنينَ فقدْ وجَّهْتُ إليكَ يزيد وابنَ أخيكَ أيوبَ بنَ سليمانَ، ولقدْ هممتُ أنْ أكونَ ثالثهما، فإنْ هممتَ - يا أميرَ المؤمنينَ - بقتلِ يزيدَ، فباللهِ عليكَ ابدأْ بأيوبَ من قبله، ثمَّ اجْعَلْ يزيدَ ثانيًا، واجعلني إن شئتَ ثالثًا، والسَّلامُ.

ودخلَ يزيدُ وأيوبُ في سلسلةٍ واحدةٍ إلى مجلسِ أميرِ المؤمنينَ الوليدِ بن عبد الملك، وراعهُ المشهدُ، وأُعطيَ الكتابَ فقرأهُ، وأطرقَ استحياءً وقالَ: لقد أسأنا إلى أخي سليمانَ؛ إذ بلغنا بهِ هذا المبلغ، ثمَّ أحضَر حدادًا وأزالَ

عنهما الحديدَ، وفكَّ وثاقهما، فأخذَ يزيدُ يتكلمُ ويحتجُ لنفسهِ فقالَ لهُ الوليدُ: قد قَبِلْنَا عذرك، وعلمْنَا ظلمَ الحجاجِ، وها قدْ عفوتُ عنك، قال يزيدُ: بقيَ واحدٌ لوْ تعفو عنهُ يا أميرَ المؤمنين.

- ومنْ هُوَ يا يزيدُ؟

- أو قد هرب معك سجانٌ يا يزيد؟

- نعم يا مولاي:

قالَ يزيدُ: السَّجانُ الذي هربَ معيَ

- ضحكَ الوليدُ وقالَ: لقد عفونا عَنْهُ

أكرمَ الوليدُ يزيدَ بنَ المهلبِ وابنَ أخيهِ أيوبَ وأمرَ لكل منهما بثلاثين ألفًا وردَّهما إلى سليمانَ وكتبَ كتابًا للحجاجِ يقولُ فيهِ، لا سبيلَ لكَ على يزيدَ بنِ المهلبِ، فإياكَ أنْ تعاودني فيهِ بعدَ اليومِ.

سارَ يزيدُ إلى سليمانَ بن عبدِ الملكَ وأقامَ عندَهُ في منزلة عاليةٍ ومرتبةٍ رفيعةٍ، وأصبح يتنقل بين دمشق والكوفةِ وغيرهما من بلاد المسلمين حرًا جريئًا لا يخاف في الله لومة لائم.

ولما صارَ سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ خليفةَ المسلمينَ سيرَّه أميراً على خراسان وغيرها من بلادِ الشرقِ.

ولم ينسَ يزيدُ السجَّانَ الذي فرَّ معهُ فأكرمَهُ وأدناهُ من مجلسهِ، ولما رجعَ أَميراً على خراسان عيَّنه صاحبَ شرطتهِ.